

" النصارى في قلب الرسالة "

من الثابت أن البحث في الأمور الدينية له رهبة خاصة والكتابة في المعتقدات تفرض الكثير من المعرفة والدقة والدراسة لأنها محفوفة بالمخاطر والمحاذير :

- الوقوع في تفسير خاطئ يخالف المعتقد القويم والصراط المستقيم،
- الاقتناع بتحليل مبني على خلفية دينية أو فكرية، مرفوضة من البعض،
- الأخذ بتأويل يجرح الشعور الإيماني لشريحة كبيرة من البشر،
- مجابهة من لا يقبل بمبدأ البحث أو النقاش في الدين والمعتقدات.

و رغم كل ما ذكرت ورغم أنني لسْتُ ضليعاً في اللاهوت المسيحي أو الفقه الإسلامي أو في العلوم التوراتية، أستمحُ السامعين عذراً كي أقول ما تملبه قناعاتي الشخصية ونظرتي المنطقية وخلفيتي الدينية فيما يتعلق بالآية الكريمة المذكورة أدناه، راجياً من المتعمق في الدين، إرشادي حيث أخطأت ومساعدتي حيث قصرتُ وتصحيح تحليلي حيث ضلّيت في فهمي وتفسير لي فحوى هذه الآية البليغ ومد لولها الصريح وترابطها المتكامل في فقراتها الثلاث التي تبين للعالمين الرأي القاطع في قلب وذهن الرسول عن محيطه البشري :

" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا
ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى،
ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وإنهم لا يستكبرون" المائدة. " 82/5 مدنية

في بحثي هذا سأقارب الآية فقرةً فقرةً مستجدياً كشف مدلولاتها :

" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا "

في عبارة " لتجدن " جاء حرف "النون" ليؤكد - دون مواربة - القناعة الثابتة أن عداوة اليهود كانت شديدة وضارية... وازدادت عداوتهم شدة حين أكد لهم النبي انتماء أمة العرب إلى إبراهيم الخليل عن طريق انتسابهم لابنه البكر إسماعيل، الذي طرد والدته هاجر، ظلماً وبهتاناً، من البيت الإبراهيمي كما حُرّم من الميراث رغم أحقيته في ضعف ميراث اسحق، حسبما شرّعت التوراة :

" إذا كان لرجل امرأتان، إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدتا له كلتاها بنين في يوم توريثه لبينه... لا يحلّ له أن يعطي حقّ البكرية لابن المحبوبة دون ابن المكروهة البكر، بل يعترف بأن ابن المكروهة هو البكر، فيعطيّه من كل ما يوجد له سهمين، فإنه ابنُ رجولته وله حقّ البكرية... " سفر تثنية الاشتراع 17-15/21

وقد أكد التاريخ القديم أن هذا القانون الوراثي ورد أيضاً في شريعة حمورابي...

لقد استعصى على اليهود تقبل مشاركة غيرهم في الميراث الإبراهيمي معتقدين أن الله لهم وحدهم حصراً، معتبرين أن سائر شعوب الأرض محرومون من الميراث لأنهم " أغيار " فجاء السيد المسيح و ردّ إدعاتهم مؤكداً في إنجيله المقدس :

" إن الله قادرٌ أن يقيم من هذه الحجارة أبناءً لإبراهيم " 3

ثم جاء بولس الرسول وأكد بصريح العبارة أن إبراهيم هو أب الجميع وأن الله هو إله الجميع وكل مخلوقاته متساوية...4

و بعد نيف وستة قرون أعاد القرآن الكريم نفس الحديث بنصٍ بليغٍ رائع :

" إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير... 5

وفي العودة إلى سورة المائدة والآية التي نحن بصددنا، نجد أن جملة : " والذين أشركوا " معطوفةٌ لغوياً على اليهود، أي أن المعطوفين والمعطوف عليهم متساوون في شدة العداوة " للذين آمنوا ". وقد أكون مبالغاً أو مجحفاً... لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه : هل أراد القرآن الكريم أن يتهم اليهود بعبادة " الله والمال "؟ إذ أنهم يعتبرون الله - جلّ جلاله- ملزماً

بخدمتهم ومراعاة مصالحهم وبمساعدهم على قتل وتدمير و تهجير كل من يقف حجر عثرة أمام حصولهم على مكاسب ومغانم وأرزاق سائر شعوب الأرض...

ولما جاء السيد المسيح علّم وبشّر بالرحمة والمحبة تجاه البشر أجمعين دون تفرقة بين عربي و أعجمي إلا بالتقوى، كما جاء في القرآن الكريم، مؤكداً أن الله أبٌ رحمنٌ رحيمٌ لكافة بني البشر،

وكانت تطويبات الجبل :

" طوبى للفقراء بالروح، فإن لهم ملكوت السموات،

طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض،

طوبى للمحزونين، فإنهم يُعزّون،... " 6

كما علّم الجموع قائلاً :

" تعالوا يا مباركي أبي، فرثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم،

لأنني جعلتُ فأطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني، وكنت غريباً فأويتموني،

وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً فعدتموني، وسجيناً فجنتم إليّ" ... 7

ولما جاء النبيّ الكريم مبشراً وهادياً ومصلحاً علّمنا قائلاً :

" ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر،

والملائكة والكتب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمسكين والسائلين وفي الرقاب،

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عهدوا،
"والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا أولئك هم المتقون" ... 8

لقد أوردت هذه النصوص القدسية كي أقول أن الله ليس حصراً على شعبٍ دون سائر الشعوب وخالق الجميع يحب عباده ومخلوقاته وهو الله الرحمن الرحيم، كما كان أبائنا الأقدمون يناجونه منذ فجر النصرانية ويحافرون على أبواب المعابد والأديرة، ويرددون هذا الدعاء حين دخولهم أماكن الصلاة: بسم الله الرحمن الرحيم: إله واحد آمين... وجاء الرسول الكريم وكرس هذه البسمة الفريضة على كل مؤمن عند المباشرة في الصلاة أو في العمل.

في الجزء الثاني من الآية الكريمة التي نزلت في المدينة، نقرأ:

" ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى" ...

وهنا أيضاً نعود لنؤكد أن حرف "النون المشددة" في كلمة "لتجدن" وردت للتأكيد على القناعة الثابتة عند الله والرسول أن النصارى "أقربهم مودة للذين آمنوا" وقد ورد في كتاب "تفسير القرآن الكريم" للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ما يلي:

" إن أتباع المسيح...فيهم مودة الإسلام... لما في قلوبهم من الرقة والرافة " ... 9

كما جاء في القرآن الكريم:

" وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه (المسيح) رافة ورحمة ورهبانية " ... 10

لابدَ هنا من تعداد الأسباب الداعية للتقارب والمودة بين النصارى والمسلمين:

- إلتقاء الطرفين على الإيمان بوحداية الله ومحاربة الإشراف بالله وعلى الدعوة للصلاح من أمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر والتأكد على العقاب والثواب واليوم الآخر...
- إلتقاء النصارى والمسلمين على محبة القريب ونصرة اليتيم والمعوز وإطعام الجياع والمساكين و إيواء ابن السبيل والسائلين والوفاء بالوعد والبرّ بالعهد...
- إلتقاء الإنجيل بالقرآن المليء بالوَدِّ والتقدير للمسيح وأمه مريم المقدسة و آل عمران:

" وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس" ... 11

" والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين" ... 12

- إلتقاء النبي الكريم مع رجال الورع والتقوى عند النصارى في انعكافاتٍ روحية وتأملاتٍ دينية بعيداً عن صخب المدينة، خلال شهر رمضان المبارك في غار حراء، بصحبة الرهبان المتتسكين المعتكفين كجدّه عبد المطلب، الذي كان يتحنث مع ورقة ابن نوفل وأبي أمية بن المغيرة... 13

" يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون" ... 14

"التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الحافظون لحدود الله، و بشر المؤمنين"... 15

- التقاء النصارى والمسلمين ناتج عن مودة النصارى " للذين آمنوا " منذ فجر الإسلام وازدادت هذه المودة قوةً بسبب عداة ورفض اليهود القطعي للرسالة الجديدة، كما سبق وعدوا ورفضوا رسالة المسيح...
- لبقاء الرسول مع " أهل الكتاب " كان جلياً طوال حياته فهو يقدس " الكتاب " ويحترمه ويجله، وقد نزل العديد من الآيات بهذا المعنى، نذكر البعض منها:

" فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك " 16

" أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " 17

- التقاء النبي بالنصرانية كان منذ فتح عينيه في بيت مؤمن بالله مُسلمٍ يوحدايته و في جوٍّ مفعمٍ بالتقى والورع... فقد ترك له والده خمس نوقٍ ومربيةً نصرانية اسمها " بركة الحبشية أم أيمن " وكان الرسول يحبها حتى أنه كان يقول لها : " أنت أُمِّي بعد أُمِّي... " 18. كما قال عنها : " من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن " 19

والفقرة الثالثة والأخيرة من الآية الكريمة " لتجدن " تشكّل مع اغفرتين السابقتين كلاً مترابطاً بالمعنى والمبنى :

" ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وإنهم لا يستكبرون "

قد أكون على خطأ لكني أرجح أن كلمة " ذلك " في هذا المقطع هي سببية مما يعني أن وجود القسيسين والرهبان بين النصارى هو من أهم أسباب هذه المودة المتجددة

نحو " الذين آمنوا " 20 ، فهم علماء دين وعلى معرفة " بالكتاب " الذي بين يديه،
وقد " أتوا العلم من قبله إذ يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً " 21
وهم " يقرؤن الكتاب من قبلك " 22
وهم " لا يظلمون " 23 " ولا يستكبرون " 24
لأنهم " التائبون العابدون... والحافظون لحدود الله " 25

ولدى تلاوة المقطع الأخير في هذه الآية الكريمة : " وإنهم لا يستكبرون "

يتبين لنا جلياً أن الله - عزّ وجلّ - خصّ القسيسين والرهبان بصفة التواضع وقبول الآخر واحترام الغير... وما خصّ الله به النصارى مسكته على اليهود، كما جاء في كتاب " تفسير الجلالين " لأن الفكر اليهودي يرى في صفة التواضع وعدم الاستكبار على الآخرين ضعفاً وخوفاً وخنوعاً، وقبول الغير مرفوض لديهم واحترام الغير مخالف لعقلهم الباطن والظاهر، إذ أنهم يعتبرون أن الله يخصّهم وحدهم، ويعيشون على وهمٍ توراتي مدّعين أنهم " شعب الله المختار " وينسون أن هذا الوهم وهذا الدور قد انتهى منذ جاء المسيح.

تعليق يفرض نفسه : أن " التوراة " كتاب مقدس والديانة اليهودية هي ديانة سماوية سوى أن أتباعها يغلّفون أبواب الجنة أمام سائر البشر، وقد عنفهم السيد المسيح على هذا التصرف قائلاً :

**" الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، فإنكم تغفلون ملكوت السموات في وجوه الناس،
فلا أنتم تدخلون ولا الذين يريدون الدخول تدعونهم يدخلون. " 26**

وختاماً لهذه الصفحات التي تجرأت وكتبتها، أتمنى على " كل من اتبع الهدى " إن يعود إلى كتابه المقدس والذي هو " كتاب " من عند الله ويفرض علينا جميعاً معرفة واحترام وقبول " الآخر " ويوصي بمحبة القريب ومساعدة البيّتامى والمساكين والمحتاجين كما يؤكد " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " 27... لذا يتوجب على كل منا أن يضطلع على "كتاب" الغير وأن يتعرف على معقداته، حتى إذا استعصى عليه فهم البعض منها يسأل ويستفسر ويناقش ويجادل " بالتالي هي أحسن" هذا " الغير " للوصول إلى القناعة...

لقد لبّى النبي محمد ابن عبد الله دعوة الرحمن وحمل للبشرية رسالة التوحيد المطلق وبشر بالمعروف ونهى عن المنكر وعلم الزكاة وإقامة الصلاة، والإيمان بالقيامة واليوم الآخر وعمل مخلصاً لرسالته، فنقل الجزيرة العربية من الجاهلية إلى النور والإيمان مع نزول القرآن الكريم.

و ما جاء في " كتاب " الإسلام عن المسيح ابن مريم وأمه المقدسة مريم العذراء وآل عمران هو غني عن الوصف،
ويكفي سماع أوصاف مسيح القرآن :

" مسيح الله - كلمة الله - روحُ الله. "

" وجعلناها وابنها آية للعالمين " 28

هذا ما تعلمناه من إنجيلنا وقرآننا، لذا علينا أن نحترم بعضنا بعضاً ونؤد كلمتنا ونتحرر من خلافتنا أمام الأخطار المحدقة بنا فنجاهبه التيارات الملحدة والأفكار الهدامة كي لا يبتلع الغرب موطن الوحي ومهبط الروح ولا ينسى أو يتناسى شرقنا العزيز جذوره الدينية كما فعلت بلدان أوروبا الخمسة وعشرين يوم 18.6.2008 حين رفضت الاعتراف في دستورها بالجذور المسيحية رغم تأصلها في حضارتها وتاريخها!...

لذا أتمنى أن يتجاوز في كل بيت جنباً إلى جنب القرآن والإنجيل كي نتذكر تعاليم كتبنا السماوية وكي يتحرر المسيحي من عقدة خوفه من جاره المسلم ويتحرر المسلم من عقدة حذره من جاره المسيحي إذ أننا كما قال المطران بطرس مرياتي :

" معاً نزرع الأرض ونجني الثمار، معاً نبني صروح العلم ونحصل الشهادات،

معاً نحمل الرايات ونزود عن كل شر من أرضي الوطن،

معاً نقرع أجراس الكنائس ونبتهل بأصوات المآذن... " 29

في صفحتها الأخيرة بتاريخ 12.9.2004 نشرت جريدة " الديار " اللبنانية أن قاضياً اتحادياً أمر بإزالة الإنجيل من نصب تذكاري كان مقاماً خارج محكمة في وسط هيوستن في ولاية تكساس/ ولاية الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش ...!

هل هذا مانريده لشرقنا الروحاني منبع الديانات السماوية؟ ...

• قد حان الوقت كي نعمل لنحافظ على تراثنا ونحمي دياناتنا من الهجمة الشرسة الراضة للروح والمؤمنة بالمادة.

• لقد حان الوقت كي نعمل بما نزل في القرآن الكريم :

" إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير " 30
" لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً " 31

• لقد حان الوقت لنضع نصب أعيننا كل ما جاء في كتبنا المقدسة، ومنها :

" ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى " 32
" كل ما أردتم أن يفعل الناس بكم، افعلوه أنتم لهم " 33

من القلب أشكر " جمعية أصدقاء النبي " التي هيأت لي الفرصة كي ألتقي الإخوة أبناء العشيرة. اشكر حضوركم جميعاً وحسن إصغائكم، طالباً من الباري تعالى أن يحمي وطننا الأبوي ورئيسه المفدى، وشعبه البطل وان يحفظ كرامتنا ووجدتنا وتعايشنا المثالي...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

نبيك، في 10.3.2005

فؤاد عزيز قسيس

المصادر والمراجع

- 1 القرآن الكريم- سورة المائدة 82/5 مدنية
- 2 سفر تثنية الاشتراع 17-15/21
- 3 الإنجيل حسب متى 9/3
- 4 رسالة بولس إلى أهل غلاطية 8/3 وأهل رومية 17/4
- 5 سورة الحجرات 13/49 مدنية
- 6 الإنجيل حسب متى 3/5
- 7 الإنجيل حسب متى 34/25
- 8 سورة البقرة 177/2 مدنية
- 9 تفسير القرآن العظيم- الإمام الحافظ جزء 2 – ص 118
- 10 سورة الحديد 27/57 مدنية
- 11 سورة البقرة 87/2 مدنية
- 12 سورة الأنبياء 91/21 مكية
- 13 السيرة الحلبية 259/1 + السيرة الملكية
- 14 سورة آل عمران 113/3 مدنية
- 15 سورة التوبة 112/9 مدنية
- 16 سورة يونس 94/10 مكية
- 17 سورة الأنعام 9/6 مكية
- 18 السيرة الحلبية 117/1
- 19 السيرة الحلبية 57/1
- 20 سورة المائدة 82/5 مدنية
- 21 سورة الإسراء 107/17 مكية
- 22 سورة يونس 94/10 مكية
- 23 سورة المؤمنون 62/23 مكية
- 24 سورة المائدة 82/5 مدنية
- 25 سورة التوبة 112/9 مدنية
- 26 الإنجيل حسب متى 13/23
- 27 سورة الحجرات 13/49 مدنية
- 28 سورة الأنبياء 91/21 مكية
- 29 أبحر إلى الأعماق – دار نعمان للثقافة – جونية 2003 - ص 126
- 30 سورة الحجرات 13/49 مدنية
- 31 سورة المائدة 48/5 مدنية
- 32 الإنجيل حسب متى 12/7
- 33 سورة المائدة 82/5 مدنية